غاندهي الزعيم الهندي

بعث الينا ابو النصر السيد محمد احمد سلطان محلة نظر كنج بجوبال من اعمال الهند مقالة مسهبة باللغة العربية موضوعها النهضة الهندية الجديدة وزعماؤها. واكثر الكلام فيها على الزعيم مهاتما غاندهي فاقتطفنا منها ما يلي قال

هو موهن داس كرمشند غاندهي . ولد في ٢ اكتوبر سنة ١٨٦٩ في بلد البوربندر من مدائن كاتياوار في غيرات (غرب الهند) وهو اصغر اولاد ابويهِ ونسبهُ من عائلة ريشية المأثورة عنها الشجاعة وقوة الارادة والتدين. وكان جدهُ لابيهِ وزيراً لوالي بوربندر . وكان ابوهُ شجاعاً شديد التدين حسن الادارة حلّ كثيراً من المشاكل التي وقعت بين الوالي والحكومة الانكليزية . وام غاندهي من بيت شريف وكانت مزدانة بخصائل حميدة واخلاق كريمة كثيرة الاحسان فربت ابنها غاندهي احسن تربية فنشأ في حضن ابوين شديدي التمسك بدينهما الوثني ولذلك كان شديد التدين من حداثتهِ يعتقد عقيدة اهمها اي عقيدة اللاضرر التي توجب على اتباعها ان لا يضروا مخلوقاً فلا يقتلوا حيواناً ولا يأكلوا لحماً . ولما صار لهُ من العمر اثنتا عشرة سنة ازوجهُ ابواهُ بفتاة شريفة وهي الآن شريكتهُ في جهادهِ وكل ما يقع بهِ

وبعد دخولهِ المدرسة جعل يستخف بدين آبائهِ شأن كثيرين غيرهِ من طلبة العلم حتى صار دهريًّا .فكان يشتري اللحم ويطبخهُ ويأكلهُ خفية على شاطىء النهر هو وبعض رفاقهِ في المدرسة . ولكن ضميرهُ كان يؤنبهُ على ذلك . واذا جلس على المائدة في بيتهِ لم يكن يأكل الاّ قليلاً فكان ابواهُ يسألانهِ عن سبب عدم جوعهِ فكان يعتذر بالاعذار المختلفة ولكنّ حبهُ الصدق في القول حملهُ على ترك اكل اللحم بتاتاً لئلاّ يتعرض لقول الكذب

وبعد نجاحهِ في الامتحان نصح لهُ صديق من اسرتهِ ان يدرس الحقوق في انكلترا فرفضت امهُ ذلك في بادىء الامر ولكنها عادت فاذعنت لما رأت من اصرارهِ واصرار أقاربهِ . وقبل سفره اخذتهُ الى احد الكهنة وجعلتهُ يقسم اليمين امامهُ ثلاثاً بان لا يمسّ في انكلترا ثلاثة اشياء — الخمر واللحم والنساء

ولما بلغ انكلترا اخذ يتخلق باخلاق رجال الانكليز فلبس الملابس الانكليزية وتعلّم الرقص والغناء الانكليزي والفرنسوي . وذهب يوماً الى غداء وكان اول ما قدم اليهِ مرق اللحم . فتذكر يمينهُ وربّها ونهض عن المائدة غير مبالٍ بسخط اصدقائهِ . فكان ذلك فوزاً كبيراً لهُ على نفسهِ . ثم انقطع عن الرقص والغناء والعزف على الكنجة واستخف بكلّ ما تعلمهُ تقليداً للرجال الانكليز

وحاول كثير من اصدقائهِ حملهُ على انتحال المسيحية فلم يفوزوا منهُ بطائل. وبعد نجاحهِ في امتحان الحقوق نال شهادة المحاماة من كلية لندن وعاد الى الهند. ولم يكد يصلها حتى فجع بفقد والدتهِ . فحزن عليها حزناً جمًّا وقضى سنة ونصفاً في بمباي وراجكوت يدرس الكتب المويصة عن المحبة العامة وكتب الهنود الدينية ويمارس المحاماة في محكمة بمباي العليا. وانتدبهُ محل تجاري كبير في بوربندر لتولي قضية لهُ في بريتوريا من جنوب افريقية فقبل وذهب اليها للدفاع عن مصلحة موكليهِ

ويجدر بنا هنا ان نقول كلمة مختصرة في موقف المهاجرين الهنود في جنوب افريقية حينئذٍ :

منذ نصف قرن احتاجت مستعمرة ناتال الى عمّال قليلي الاجرة لتوسيع موارد ثروتها فارسلت مندوبين من قبلها الى حكومة الهند لتجهزها بالعمال اللازمين وعقد بين الطرفين عقد رسمي تعهدت فيهِ حكومة ناتال بان تعامل المهاجرين بكل احترام مدة العقد . وبعد انقضائهِ تسهل عليهم سبيل الاقامة في البلاد تسهيلاً تامًّا اذا شاءوا الاقامة فيها للعمل مستقلين

فجمع وكلاء حكومة ناتال الوفاً من المزارعين الهنود من جميع اطراف الهند وسفروهم الى جنوب افريقية ولكنهم لقوا في مهجرهم الجديد ما لقوا من الظلم والاضطهاد وسوء المعاملة فحنقوا لتلك المعاملة ولكنهم لم يستطيعوا الخلاص منها قبل نهاية مدتهم والاّ حوكموا وحكم عليهم . واذا انتهت مدة عامل ورفض تسجيل اسمهِ عدّ من الاعداء واقيمت موانع عديدة امامهُ اذا شاء الحصول على الحرية في عملهِ . وميز قانون الملكية بين اللون الابيض وغير الابيض فقرض على كل هندي في ناتال ان يدفع رسماً قدرهُ ٣ جنيهات كل سنة حتى يبلغ سناً معلومة . ويكفي القول ان كلّ هندي كائناً من كان طبيباً او تاجراً او واعظاً كان

يحسب مملوكاً ويعامل معاملة المملوك او العبد . وربما كانت معاملة الهنود في الترنسفال والاورنج احسن منها قليلاً في ناتال

ولهذه المعاملة اربعة اسباب الاول جنسي او ما نسميهِ عصبية اللون. والثاني اقتصادي فان الهندي المطلق هناك كان مزاحماً كبيراً في التجارة للبيض لانهُ بعاداتهِ السهلة واقتصادهِ في معيشتهِ كان يمكنهُ ان يبيع ويشتري بارخص مما يفعل البيض. والثالث عصبية احتكار الارض لتبقى ارض جنوب افريقية ملكا للرجل الابيض دون ما ينعتونهُ بالملوّن اي ذي اللون الاسمر كالهندي والاصفر كالياباني والصيني والاسود كابن البلاد الاصلي . والرابع شعور بان دخول غير الابيض الى البلاد وعيد بقلب مدنيّة الابيض

وقد رأى مستعمرو جنوب افريقية ان خير حلّ لهذه المسئلة واسهلهُ منع هجرة الهنود اليهِ في المستقبل ومعاملة الموجودين منهم فيهِ معاملة لا تطاق حتى يضطروا الى ترك البلاد . ومن اليوم الذي وطئت فيهِ رجل غاندهي ارض ناتال اذيق ضروب الاهانة كسائر الهنود الذين هناك . ففي المحكمة العليا امر ان ينزع عمامة المحامي عن رأسهِ . وسافر مرة بالقطار الى الترنسفال فامرهُ لحارس بان يترك مركبة الدرجة الاولى وكان قد دفع اجرتها كاملة ويركب سيئة القطار . ولما ابى ذلك أُنزل من القطار بفظاظة مع امتعتهِ . وفي بريتوريا طردهُ ديدبان مرة عن الرصيف ورفسهُ برجلهِ

واول ما عملهُ في جنوب افريقية هو انهُ شرع يجمع شتات قومهِ ويوحّدهم فينظم جمعيات مختلفة منهم وعلمهم طرق المناقشة الدستورية واثر فيهم جميعاً اعظم تأثير بقدوتهِ الحسنة وحسن سلوكهِ وايثارهِ وصدق اخلاصهِ

وفي سنة ١٨٩٦ ذهب الى الهند لاستحضار قرينتهِ واولادهِ وعاد في باخرة بطريق دربان وكان في الباخرة ست مئة من مهاجري الهنود فاجتمع جمهور غفير من البيض وهم يصيحون ويشتمون وتظاهروا تظاهراً عدائيًّا ضدهم ولكن النائب العمومي خطب فيهم مسكناً هياجهم وطلب منهم التفرق واعداً بان يفتح هذه المسئلة في برلمان ناتال . ولم يصل غاندهي الى منزلهِ الا بعد معارضة شديدة وتداخل البوليس في الامر . وحاول الناس حرق البيت الذي يقيم فيهِ فخرج المدهُ لابساً لباس شرطيّ ووضع في مركز البوليس

وفي سنة ١٨٩٩ نشبت حرب جنوب افريقية فتطوع الوف الهنود في الحرب اجابة لدعوة غاندهي واستخدموا في القسم الطبي لنقل الجرحى والمرضى الى المستشفيات وقُتل كثيرون منهم ثم انتهت الحرب واصبح جنوب افريقية جزءاً من الامبراطورية البريطانية ولكن معاملة الهنود لم تتغير بتغير الحكومة

وفي سنة ١٩٠٤ ابتاع غاندهي جريدة « الراي الهندي » ومطبعتها واصدرها باربع لغات الانكليزية والتامينية والتجرانية والهندستانية فخسر في السنة الاولى من اصدارها الفي جنيه من مالهِ الخاص ثم تحسنت حالتها المالية قليلا في السنة التالية وصارت قوة كبيرة في جنوب افريقية وخدمت الهنود خدمة فائقة . وتفشى الطاعون تلك السنة بين هنود يوهنسبرج فتهاملت الحكومة في امره حتى نبهها غاندهي اليهِ وابان لها انها اذا لم تهبّ لمقاومتهِ انتشر الى جميع اطراف البلاد. وبعد زوال الطاعون ذهب الى ناتال واشترى ارضاً في بقعة خصبة وبنى هناك مساكن للهنود حتى قامت قرية شبه مستعمرة جمع فيها بني قومهِ ليسكنوا هناك ويستغرقهم بحياتهِ الصالحة الى سلوك سبل الطهارة . فكانوا اخوة بالروح لا يميز واحد منهم عن آخر وكان الكدّ والجدّ ديدنهم يحرثون ويزرعون بايديهم . وكان غاندهي يذهب الى المستعمرة بنفسهِ في اوقات فراغهِ ليساعدهم في العمل . وجرّد نفسهُ من جميع اسباب الرفاهة والتنعم ولبس لباساً خشناً وعاش عيشة تقشف وزهد واكتفى بما يقوت جسمهُ من الطعام وكان ينام في العراء

وفي سنة ١٩٠٦ ثارت قبائل الزولو فانشئت جمعية من الهنود عددها ٢٠ رجلاً بقيادة غاندهي لنقل الجرحى الى المستشفى . فقدم بذلك الزولو واكتسب حبهم واحترامهم . وفي هذه السنة سنّت حكومة الترنسفال قانوناً جديداً يقضي على الاسيويين بان تسجل اسماؤهم من جديد وتبصم ابامهم كالمذنبين والمجرمين. فعارض غاندهي ورفاقهُ في هذا القانون حتى تمكنوا من استثناء النساء منهُ . ثم توجه وفد من الهنود الى انكلترا بقيادة غاندهي والمستر علي للسعي في الغاء هذا القانون. وبعد اللتيا والتي وُقّع القانون ثلاثة اشهر يكون في اثنائها التسجيل بالتطوع ثم يلغى القانون بعد نهايتهِ

(البقية تأتي)